

القرآن الكريم

عناصر الموضوع

٢٧٠	مفهوم القرآن
٢٧٢	القرآن الكريم في الاستعمال القرآني
٢٧٣	الألفاظ ذات الصلة
٢٧٥	القرآن الكريم آية وهداية
٢٨٤	حفظ الله للقرآن
٢٩٦	القرآن حجة الله على الناس
٣٠٣	حديث القرآن عن مواقف الناس منه
٣٠٩	الأدب مع القرآن
٣١٩	أثر القرآن على المكلفين والجمادات

مفهوم القرآن

أولاً: المعنى اللغوي:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، ومن هذا المعنى تطلق كلمة قرء على الحيض وعلى الطهر، فهي من الأضداد، يقال: قرأت المرأة حيضةً أو حيضتين. والقُرءُ انقضاء الحيض، على قول البعض، وقال بعضهم: ما بين الحيضتين، والقارئ: الوقت، تقول: أقرأتِ الرُبُحُ: إذا دخلت في وقتها. واستقرأ الجمل الناقية: إذا تاركها؛ لينظر ألقحت أم لا، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمهما^(١).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حاصل ما تم دراسته من تعريفات مصطلح القرآن الكريم هو أنه: كلام الله تعالى القديم، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية، وهو معجزٌ ببيانه، متعبدٌ بتلاوته، منقولٌ إلينا بالتواتر، مقروءٌ في المصاحف، مبدوء بسورة الفاتحة ومنتبه بسورة الناس^(٢). وهذا التعريف شرحه على النحو الآتي:

(كلام الله تعالى القديم): خرج منه أي كلام غير كلام الله تعالى من قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك، وهو قديم؛ إذ إنه أصيل من عند الله تعالى لا يعتره نقص ولا مشكلة.

(المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم): خرج منه أية شبهة تقول بأنه أنزل جملة واحدة، أو أنه مخلوق؛ لأنه نزل من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم. (بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام): ووساطة سيدنا جبريل عليه السلام تعني أن الكلمات القرآنية نزلت بأمر الله تعالى على لسان سيدنا جبريل عليه السلام، كما علمه الله تعالى. (وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية): بيان سبب أنه غير مخلوق، وهو أن

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦٤/١، مجمل اللغة، ابن فارس ٧٥٠/١.

(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص ٦٦، بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيم ص ١٤.

الكلام القرآني جزء من صفة الخالق، وليس منفكاً عنه، وبالتالي فإن ما كان جزءاً من الخالق ليس مخلوقاً.

(وهو معجز ببيانه، متحدى به، متعبد بتلاوته): خرج منه الحديث القدسي، أو أي قولٍ لله تعالى غير القرآن؛ لأن القرآن -وحده- هو المعجز والمتحدى به، وبالذات في وجهه الأصيل وهو البيان، والقرآن -وحده- دون غيره يتعبد به في التلاوة.

(منقول إلينا بالتواتر): إن القرآن -وحده- دون غيره، هو الذي لا يقبل منه أية كلمة منه إلا إذا سمعتها الأمة عبر تواتر أجيال السند؛ إذ لا يكفي خبر الأحاد في النقل، ولو بوجه من وجوه أحكامه.

(مقروء في المصحف): من هذه الفقرة يتبين أن هناك فرقاً بين القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وبين المصحف الذي هو الأوراق المكتوب فيها كلام الله تعالى، أي: القرآن، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن يجمع القرآن؛ لأنه واحد، وفي المقابل فإنه يجوز أن يجمع المصحف؛ لأنه أوراق بداخلها القرآن.

(مبدوء بسورة الفاتحة، ومنتته بسورة الناس): وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم يتكون من (١١٤) سورة، تبدأ من سورة الفاتحة، وتنتهي إلى سورة الناس، وترتيب السور القرآنية على الراجح توقيفي، أما ترتيب الآيات فإنه بالإجماع توقيفي.

ويظهر أن معنى الجمع والضم في اللغة يتناسب مع ما سمي به القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وهذه السور هي كلام الله عز وجل، بالتالي فالمعنى الاصطلاحي خص بأحد المعاني اللغوية للقرآن.

القرآن الكريم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٨) مرة^(١).
والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦٨	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وجاء القرآن في الاستعمال القرآني بمعنى: الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب القاف، ص ٩٣٧-٩٣٨.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكتاب

الكتاب لغةً:

الحكم، ومنه قوله: كتاب الله، أي: حكم الله، وكتاب الله: القرآن^(١).

الكتاب اصطلاحًا:

«الحجة الثابتة من جهة الله تعالى»^(٢)، وقد وردت في القرآن بمعنى التوراة واللوح المحفوظ، والقرآن.

الصلة بين الكتاب والقرآن:

الكتاب هو كلمة تشمل القرآن الكريم وغيره، أما القرآن فهو تلك المعجزة الخالدة، أما إذا عرف الكتاب بـ(ال) التعريف، فإنها تكون معهودةً على القرآن الكريم.

٢ الكلام

الكلام لغةً:

اسم جنس يقع على القليل والكثير من الحديث^(٣).

الكلام اصطلاحًا:

«إظهار ما في الباطن على الظاهر لمن يشهد ذلك بنحو من أنحاء الإظهار»^(٤).

الصلة بين الكلام والقرآن:

الكلام الذي ورد في الاصطلاح لا ينطبق على القرآن؛ لأن القرآن ليس مخلوقًا مع أنه كلام؛ ولذلك فإن كلام الله تعالى ليس ككلام البشر، فهو جزء من صفة الذات العلية، كما أن القرآن الكريم هو محل التدبر والاتعاظ، ولا يكون هذا في كلام البشر.

٣ الذكر

الذكر لغةً:

مصدر ذكر الشيء يذكره ذكْرًا وذكْرًا، وأصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء، ومن

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ١ / ٣٣٥.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٧٩.

(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٢٧٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٨٣.

ذكرك شيئاً فقد نبهك عليه، وإذا ذكَّرتَه فقد نبهته عليه^(١).

الذكر اصطلاحًا:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»^(٢).

الصلة بين الذكر والقرآن:

القرآن الكريم جزء من الذكر، وهو أشمل من الذكر في جزئية الإعجاز، والذكر أشمل من القرآن في جزئية أن كل ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه، فيدخل فيه ما ورد في السنة المطهرة من النصوص الصحيحة الثابتة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/١١١.

(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/٣٩٦.

استحكم في زمانهم، وغلب على خاصتهم، وعظم في نفوس عامتهم؛ لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبظلة لأقوى الأشياء في حساباتهم؛ ولئلا يجد المبطلون متعلقا يتشبثون به، ولا سيلا يتخذونه إلى اختداع الضعفاء؛ فقد أيد الله -جل جلاله- موسى -عليه السلام- وكان عصره عصر سحر، بفلق البحر، وانقلاب العصا حية تسعى، وانجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء. وأيد عيسى -عليه السلام- وكان عهده عهد طب، بإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه^(٢).

ولما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، جعله الدرّة الأخيرة في عقد النبوة، واللبنّة المتتمّة لبنيانها؛ فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذلك وجب حفظ كتاب نبوته من التبديل، وهو الرسول الذي تعم رسالته الناس جميعاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولذلك وجب أن تظل معجزته الدالة

القرآن الكريم آية هداية

اختصاص الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بآية من آياته كاف في الدلالة على نبوته قائم مقام معجزات من سواه من الأنبياء، جعله الله هداية لخلقه إلى كل خير، وهذا ما ستناوله بالبيان فيما يأتي:
أولاً: القرآن الآية الشاهدة بالنبوة:

لما ابتعث الله رسله عليهم السلام إلى الناس يدعونهم إلى الحق ويهدونهم إليه أيدهم بآيات تدل على صدقهم كعصا موسى التي تنقلب حية، أو ناقة صالح التي أخرجت من الصخر^(١)، غير أن هذه الآيات المصدقات كانت محدودة بالزمان والمكان، والسبب في ذلك أن رسالات هؤلاء الأنبياء كانت رسالات لقومهم خاصة، وأن الحجّة تقوم عليهم بمعابيتها ثم ينقل خبرها إليهم نقلاً لا يدع مجالاً للشك فيها عن عاينها، على قرب عهدهم بها. ثم إن هذه المعجزات تتناسب مع ما برع فيه كل قوم؛ لتكون الحجّة أبين وأقوم.

قال الباقلاني: «جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه؛ لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمر حسية تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٥٢٥.

أنه سيكون يدل على صحة دعواه. وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقاة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس يفترض بانقراض مشاهدته، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً»^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنه عليه - الصلاة والسلام - قد جرت على يديه معجزات وخوارق كثيرة، غير أن الآية الوحيدة التي جعلت شاهداً على صدقه ودليلاً على نبوته هي القرآن الكريم، فإنه سبحانه «لما أرسل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس أجمعين، وجعله خاتم النبيين أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين، وخصه بمعجزة عقلية خالدة، وهي إنزال القرآن الكريم، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(٣).

وقد وقع التحدي بهذا القرآن للمخلوق جميعاً، وما زال قائماً إلى يوم القيامة، لا يجد الناس له معارضة، ولو بالجزء الأيسر منه «سورة لا تجاوز ثلاث آيات قصيرات

على صدقه قائمة بينهم يعاينونها ويشهدونها فتقوم عليهم الحجة بها. وهذا الأمر نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)^(١).

فكانت معجزته صلى الله عليه وسلم عقلية لا حسية، ومستمرة لا آتية، ولذلك يبقى مفعولها دائماً وتبقى الاستجابة لها مستمرة، قال السيوطي: «هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراهها ذوو البصائر، كما أنه صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة).

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي إلى النبي صلى الله عليه، ٦/١٨٢، رقم ٤٩٨١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/٣.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

[الطور: ٣٤]. «وكانوا أفصح الفصحاء ومصارع الخطباء وأمهلم طول السنين فلم يقدرُوا» (٣).

• ثم تحدوا أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [هود: ١٣].

• ثم تحدوا أن يأتوا بسورة من عند أميِّ مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [البقرة: ٢٣].

• ثم تحدوا أن يأتوا بسورة مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [يونس: ٢٨].

قال الخازن: «أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾ فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما؟

(٣) المصدر السابق ٣/٤.

من مثل سورتي العصر والكوثر». ولقد نصت الآيات نصًّا صريحًا على أن القرآن الكريم كاف في الدلالة وحده على صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا اُنزِلَ عَلَيْنَا آيٰتٌ مِنْ رَّبِّنَا قُلْ اِنَّمَا الْآيٰتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَاِنَّمَا اَنَا نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿٥٠﴾ اَوْلَمْ يَكْفِيْهِمْ اَنَّا اَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتٰبَ يَتْلُوْنَ عَلَيْهِمْ اٰيٰتٍ فِيْ ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَّذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

فقوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتٰبَ يَتْلُوْنَ عَلَيْهِمْ﴾ .. جواب لقولهم ﴿لَوْلَا اُنزِلَ عَلَيْنَا آيٰتٌ مِنْ رَّبِّنَا﴾ أي: أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولوا أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر، ونحن لانعرف السحر^(١)، وفي الآية إخبار: «بأن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء»^(٢).

ويلاحظ أن التحدي بالقرآن الكريم تدرج بصفة تنازلية على مستويات:

• فتحدوا أولاً أن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ اِنْ كَانُوْا صٰدِقِيْنَ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٣٥٥.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ٣/٤.

النزول على تلك، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرًا، والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفترأة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متربة على قولهم: افتراه، وكذلك آية البقرة وإنما ربيهم بأن القرآن مفترى.

قال: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة^(٢).

والحاصل أن القرآن الكريم قد أعلن أن معجزته الشاهدة بصدقه قائمة فيه، وقال للمعارضين: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْزَلْنَا نَارًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُجَارَىٰ بِهَا وَالنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَهْلَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وأعلن أن إعجازه للخلق جميعا سيظل قائمًا مستمرًا: ﴿قُلْ لَئِنْ جَمَعْتُمِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولا تعرف حجة أبلغ من هذه، ولا يعرف كتاب تحدى الناس على مر الزمن معلناً عجزهم عن مضاهاته، بل مضاهاة الجزء اليسير منه.

ومن أعظم دلائل عظمته استغناؤه بذاته في الدلالة على صدقه من غير حاجة إلى شهادة غيره، ورغم أن التواتر حجة عقلية

لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم^(١). أما ابن عطية فعنده أن التحدي بالعشر مبني على التوسيع عليهم في كونها مفتريات؛ بمعنى المضاهاة في اللفظ من غير الالتفات إلى المعنى، وعليه فلا حاجة لكون التحدي بالعشر وقع قبل التحدي بالسورة.

قال: «ووقع التحدي في هذه الآية -آية سورة هود- ﴿يَعْسِرُ سَوْرٍ مِثْلِهِ﴾؛ لأنه قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر؛ لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية ﴿يَعْسِرُ سَوْرٍ مِثْلِهِ﴾ دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة، ونظمه ووعده ووعيده وعجزوا في هذه الآية، بل قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمها، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر؛ لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفترأة، ولا تبالي عن تقديم نزول هذه على هذه، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرّون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية يونس. وقال بعض الناس: هذه مقدمة في

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٥.

(١) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

قاطعة عند العقلاء، إلا أن القرآن الكريم غير محتاج إليها في إثبات صدقه، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

أولاً: هدايات القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الهادي إلى كل خير، وقد وصفته آياته بأن ﴿فِيهِ هُدًى لِّلضَّالِّينَ﴾.

قال الرازي: «الهدى عبارة عن الدلالة، وقال صاحب الكشف: الهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية، وقال آخرون: الهدى هو الاهتداء والعلم. والذي يدل على صحة القول الأول وفساد القول الثاني والثالث أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبراً في مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

أثبت الهدى مع عدم الاهتداء؛ ولأنه يصح في لغة العرب أن يقال: هديته فلم يهتد، وذلك يدل على قولنا^(١).

وعليه فالهداية بيان طريق الهدى بقطع النظر عن سلوك المهدي له أم لا، وتضمن القرآن الكريم لهدى واتصافه به ثابت له

بقطع النظر عن استجابة الناس لذلك أم لا. وقد وقعت الهداية في القرآن الكريم بأربعة معان:

«الأول: الهداية التي عم الله بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء حسب احتماله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

الثاني: الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على أسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَا أَمْرًا﴾.

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾.

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، وهو المعنى بقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة^(٢).

هذا والقرآن الكريم هاد: «أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لأقوم الطرق،

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ٣١٤/٥.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦٦/٢.

جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: إنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلماً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، ويتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة^(٣).

وهذا الإضمار - كما يشير إليه ابن عاشور - أبلغ من التصريح، وذلك أنه لو وقع التصريح به لكان قصراً لهديته على بعض معانيها دون البعض الآخر، وذلك أن «هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفاراً، وحسبك مثلاً لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في

وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة^(١).

وقد ورد ذلك صريحاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ آخِذْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ [الإسراء: ٩-١٠].

«والمعنى: إن هذا القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم - في جميع شؤونهم الدنيوية والدنيوية - إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها، وهي ملة الإسلام. فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء^(٢).

وقد وقع المهدي إليه في الآية مضمراً موصوفاً بأنه الأقوم من بين سائر ما يهدي إليه.

قال ابن عاشور: «و﴿لَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿يَهْدِي﴾ أي: للطريق التي هي أقوم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/١٥.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣٠٣/٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٠/١٥.

جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت»^(١).

على أن صاحب التحرير يميل في كلامه هذا إلى أن السعة في أساليب الدلالة على الهداية لا في الغاية المهدي إليها، وهو ما قد لا نوافقه عليه؛ لأن التفضيل في قوله سبحانه: ﴿لَتَلْقَى مِنْ أَقْوَمٍ﴾ واقع على المهدي إليه لا على أساليب الهداية، والأقرب أن نقول -والله أعلم-: إن هذا القرآن يهدي للأقوم من الأقوال والأفعال والمعتقدات، والتصورات والنظم، والأحكام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرق فض النزاعات وإيصال الحقوق إلى أهلها، وحماية الضعفاء والرحمة بالمستضعفين من اليتامى والنساء والولدان، وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره. ولذلك شواهد يمكن التمثيل بها من سورة الإسراء نفسها التي وردت فيها هذه الآية؛ فإن السورة قد تضمنت هداية للناس جماعة كما تضمنت هدايتهم لأقوم السبل أفراداً، وشملت هداياتها العلاقة بالوالدين، كما شملت أصول الأخلاق، والسبيل الأفضل في

التصرف في المال، وما يجب وما يجنب في العلاقات الأسرية، وأحكام الدماء رابطة لذلك كله بالحبل الأعظم: توحيد الله وقصد وجهه وطلب رضوانه، والحذر من عقابه:

فأما هداية الناس جماعة فشواهدا في السورة مخاطبة الجماعة في نحو: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.

وأما هدايتهم أفراداً فشواهدا خطاب الواحد خاصة في الأحكام المتعلقة بما يتفرع عن شيء في النفس كالكبر في نحو قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦-٣٧].

وأما الهداية لأقوم السبل في العلاقة بالوالدين فدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وفي الإحسان إلى الأقارب وأهل الحاجة: ﴿وَمَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. ﴿وَمَا تَرْضَىٰ عَنْهُمْ آتِيَةً

(١) المصدر السابق.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿ [الإسراء: ٢٨].

كَبِيرًا ﴿ [الإسراء: ٣١].
﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً

ولأصول الأخلاق دل عليها: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُورًا ﴿ [الإسراء: ٣٤].

﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [الإسراء: ٣٢].

وأحكام الدماء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَيْهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿ [الإسراء: ٣٣].

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿ [الإسراء: ٣٥].

ويرتبط كل ذلك من قبل ومن بعد برباط عظيم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿، ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفَلِتَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْمُورًا ﴿ [الإسراء: ٣٩].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عِنْدَ مَشْهُورًا ﴿ [الإسراء: ٣٦].

ومن الهداية بيان صفات الموقنين؛ ليقندي بهم: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلْنَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿ [الإسراء: ٣٧].
﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿ [الإسراء: ٣٨].

ومن الهداية بيان سبيل الشر وعاقبة أهله؛ ليجتنب: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ رَبِّي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَاتِبَ وَلِنُعَلِّنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ [الإسراء: ٤].

وللسبيل الأفضل في التصرف في المال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿ [الإسراء: ٢٦].

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَنزِرْ وَذَرَّ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿ [الإسراء: ١٥].

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿ [الإسراء: ٢٧].
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَنصُورًا ﴿ [الإسراء: ٢٩].

ولما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاًا

حفظ الله للقرآن

عهد الله بحفظ الكتب السابقة إلى البشر فحرفوا فيها وانحرفوا عن تعليماتها، وتكفل سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من التبديل والتغيير فبقي كما أنزل من عنده، وسيبقى إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وسوف نتناول حفظ القرآن عن سائر الكتب فيما يأتي:

أولاً: صفة حفظ الكتب السابقة:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة، خلافاً له، قد عهد بحفظها إلى البشر، وهم عرضة للغلط والهوى والانحراف.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْسَوْا وَلَا تَسْتَرُوا بِتَابِعِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فنصت الآية على أن حفظ التوراة أوكل للربانيين والأحبار ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، قال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَرْغَلْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

وبالجملة فقد حاولنا التمثيل لسعة أبواب الهداية التي تضمنها القرآن الكريم من سورة الإسراء التي ورد النص فيها على أنه يهدي للتي هي أقوم؛ للدلالة على كثرتها وسعتها وتعذر إحصائها، وأنه تضمن الإرشاد لكل خير. وتجدر الإشارة في ختام هذا الموضوع إلى أن أغلب ما ذكر من الهدايات استناداً إلى نصوص القرآن الكريم السابقة مرتبط بأمور الدنيا، وذلك يدحض فكرة سائدة تجعل الدين قسماً للدنيا، ويرسخ حقيقة أن العبادة الصحيحة هي إقامة الحياة وتقويمها وفق منهج القرآن وفي ذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

لا أحسن من هذا الكلام»^(٣).
وعليه فالاستحفاظ كما كان على تبيين
المعاني وترك تحريفها، كان على اللفظ
وترك تبديله، والمستحفظون هم الربانيون
والأخبار.

و«الربانيون: هم الذين يسوسون الناس
بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، عن ابن
عباس وغيره. وقال أبو رزين: الربانيون:
العلماء الحكماء. وقال مجاهد: الربانيون:
فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة.

والأخبار: قال ابن عباس: هم الفقهاء
والحبر والحبر الرجل العالم، وهو مأخوذ
من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون
العلم، أي: يبينونه ويزينونه، وهو محبر في
صدورهم. قال الجوهري: والحبر والحبر
واحد أخبار اليهود، وبالكسر أفصح: لأنه
يجمع على أفعال دون الفعول، قال الفراء:
هو حبر بالكسر، يقال ذلك للعالم. وقال
الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبراً؟
فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى: مداد
حبر ثم حذف كما قال: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾
[يوسف: ٨٢].

أي: أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي
فقال: ليس هذا بشيء، إنما سمي حبراً؛
لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي: صفرة أو
سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي

دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي
هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم
والتبليغ للأمة على ما هو عليه. فالباء في
قوله: ﴿يَمَا اسْتَحْفِظُوا﴾ للملابسة، أي:
حكماً ملابساً للحق متصلًا به غير مبدل ولا
مغير، ولا مؤوّل تأويلاً لأجل الهوى»^(١).

فالاستحفاظ -وفقاً لرأيه- هو في
الأساس ائتمان على بيان المعاني الصحيحة،
المرتبط والمتفرع عن كونهم متميزين عن
عموم الناس بعلم الكتاب وتعليمه، ولكنه
يعطف عليه أيضاً حفظ حرفه من التبديل
فيقول: «ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب
الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن
إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في
(المدارك)^(٢)، عن أبي الحسن بن المتتاب،
قال: كنت عند إسماعيل يوماً فسئل: لم جاز
التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل
القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل
التوراة: ﴿يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾
فوكّل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: ﴿إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فتعهد
الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل
القرآن. قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال:

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/٢٠٩.

(٢) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك،
القاضي عياض ٤/٢٨٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/٢٠٩.

يكتب به حبراً؛ لأنه يحبر به، أي: يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار: الحبر - بالفتح -، ومعناه: العالم بتجوير الكلام والعلم وتحسينه. قال: وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح»^(١).

وكل من الأحبار والرهبان: «كانوا حفظة على كتاب الله وحراسا له من سوء الفهم وسوء التأويل، ويحملون أتباعه على حق فهمه وحق العمل به»^(٢)، ولكنهم بدلوه.

وأما دافع هذا التبديل فهو الخوف والطمع، وقد تضمنت الآية الإشارة إلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْا﴾ **النَّاسَ وَأَخْشَوْا** **ثُمَّ إِنِّي سَمِعْتُ مَنَّانًا يَقُولُ لَا تَخْشَوْا إِنِّي خَشِيتُ النَّاسَ وَأَخْشَيْتُ اللَّهَ فَكَانَ اللَّهُ عِندَ ذَلِكَ عَلِيمًا** وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾.

قال ابن جرير في سياق بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لعلماء اليهود وأخبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرت، فإنهم لا يقدرون لكم على ضرر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكماً في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحد من خلقي، فإن النفع والضرر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفظتم من

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨٩/٦ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١٠/٦.

كتابي»^(٣). ثم روى بسنده عن السدي قال: «يقول: لا تخشوا الناس فتكتموا ما أنزلت»^(٤). ولذلك عقب النص على استحفاظ الأحبار والرهبان على الكتاب (بجملة) **﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾** المتفرعة بالفاء على قوله: **﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾**؛ إذ الحفيظ على الشيء الأمين حق الأمانة لا يخشى أحداً في القيام بوجه أمانته ولكنه يخشى الذي استأمنه»^(٥).

قال ابن جرير: «وأما قوله: **﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾** يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضاً خسيساً، وذلك هو (التمن القليل)، وإنما أراد تعالى ذكره، نهيمهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدلوها طلباً منهم للرشى، كما قال ابن زيد: لا تأكلوا السحت على كتابي، وقال مرة أخرى: لا تأخذوا به رشوة. وعن السدي: ولا تأخذوا طمعا قليلاً على أن تكتموا ما أنزلت»^(٦).

والخطاب في الآية متردد بين أن يكون موجهاً لليهود الذين كانوا معاصرين للنبي

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/٣٤٤.

(٤) المصدر السابق.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/٢١٠.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٠/٣٤٥.

إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاتَّعَفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ [المائدة: ١٣].

وأصبح كثير منهم طلاب دنيا؛ يصدون
عن سبيل الله حفاظا على مناصبهم
ومصالحهم وما ينالهم من أموال الجهلة
والدهماء الذين اتخذوهم أربابا من دون
الله ﴿يَتَأَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتَكْوَمُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كُتِرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُتِمْتُمْ
تَكْتِزُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

هذا وكانت حكمته سبحانه قد قضت أن
يعهد إليهم بحفظ كتب علم أنهم مبدلوها،
ابتلاء لهم وامتحاناً، وقد سبق في علمه جل
وعلا أن رسلاً آخرين سيأتونهم من بعد
ذلك بالوحي من عنده، ولما تختتم رسالته
بعد. وهناك أمور قد وطأت لهذا التحريف
وسهلته.

ثانياً: أسباب التحريف في الكتب
السابقة:

تقدم أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل
حفظ الكتب السابقة إلى الأبحار والرهبان

صلى الله عليه وسلم أو الذين كانوا قبلهم،
قال في التحرير: «فيجوز أن يكون الخطاب
بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ﴾ ليهود
زمان نزول الآية، والفاء للتفريع عما حكي
عن فعل سلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا
قدوة لخلفهم من الفريقين، والعجلة على
هذا الوجه معترضة، ويجوز أن يكون
الخطاب للنبيين والرهبانين والأبحار، فهي
على تقدير القول، أي: قلنا لهم: فلا تخشوا
الناس. والتفريع ناشئ عن مضمون قوله:
بما استحفظوا من كتاب الله؛ لأن تمام
الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالناس
رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على
رضا الله تعالى»^(١).

وفي كلتا الحالتين ففي الآية وصية
للصالحين، وهي حجة على المحرفين،
وفيها بيان للدوافع التي حملت من حرف
منهم على الجرأة عليه.

هذا ومع تطاول العهد، فقد نشأت منهم
فتنة فاجرة اشترت بآيات الله ثمنا قليلا
ووطأتها لكل ظالم خوفاً أو طمعا، بل إنهم
استطابوا ذلك واستمرؤوه بما خالج قلوبهم
من القسوة: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ بِإِثْقَامِهِمْ لَعْنَتُهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَجْرِفُونَ
الْكَذِبَ عَن مَّوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/٢١٠.

واستحفظهم عليها، على خلاف القرآن الذي تولى هو جل وعلا حفظه.

ويلاحظ من ناحية الأسباب فرق أساس ميز الكتب السابقة عن القرآن الكريم؛ ففي الوقت الذي نزل هو منجماً نزلت هي جملة واحدة، وكان نزوله منجماً على أمة أمية تعتمد على الحفظ سبباً في وجوده عند عمومهم وجميعهم كما يأتي، فلا قدرة لأحد منهم على أن يستأثر به من دونهم فيزيد فيه أو ينقص دون أن يتنبهوا لذلك ويعلموا به، وأن يكونوا حجة على تحريفه، بينما كان ذلك الاستثثار في مقدور الأخبار والرهبان الذين كان الكتاب موجوداً عندهم من دون سائر الناس.

ولئن لم ينص نصاً صريحاً على أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة، فقد وقع في نصوص القرآن ما يوحي بشيء من ذلك، كقوله تعالى في شأن ألواح موسى:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والألواح: «التوراة». وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريل -عليه السلام- بجناحه فمر به في العلا حتى أدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء.

وابن جبير: من ياقوتة حمراء. وأبو العالية: من زبرجد. والحسن: من خشب، نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لينها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود^(١).

قال الرازي: «واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

وأما قوله: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح^(٢).

ويهمنا في هذا المقام أن الآية دلت على أن التوراة نزلت جملة واحدة مكتوبة، ولازم ذلك أن النبي المنزلة عليه قارئ كاتب، وكذا من استحفظوا عليها من بعده.

وقد استنبط من قوله الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: ٣٢]. أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة، قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾

يقول: هلا نزل على محمد صلى الله عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٦٠.

إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾، وكما رد عليهم في قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾، بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكًا رَسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾.

بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجماً بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُنْزِلَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزل مفرقاً لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: قدرناه آية بعد آية، بعضه إثر بعض، أو بيناه تبييناً، فإن إنزاله مفرقاً حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التثبيت^(٢).

ولما نزلت هذه الكتب جملة واحدة على أنبياء يقرؤون ويكتبون، ثم كانت بيد الأحرار والرهبان من بعدهم مستأثرين بها من دون عامتهم، فقد كان بمقدورهم تحريفها إما خوفاً أو طمعاً، كما هو مدلول الوصية التي أنزلت إليهم: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّاسَ

وسلم ﴿الْقُرْآنُ جُمْلَةٌ وَوَحْدَةٌ﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَلِكَ لِنُنْزِلَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء؛ لثبت به فؤادك نزلناه^(١).

ووجه استنباط ذلك أن المشركين كانوا في سؤالهم المبطن بالتعجب يقيسون على حالة سبق العلم بها عندهم، ثم إن القرآن الكريم أجابهم على خلاف أسئلتهم الأخرى ببيان وجه الحكمة لا بإخبارهم بأن هذا سنة الرسل من قبل.

قال القطان: «أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزيبور - فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَوَحْدَةً كَذَلِكَ لِنُنْزِلَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقاً لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجماً، فمعنى قولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَوَحْدَةً﴾: هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وماله أنزل على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقاً؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في

(٢) مباحث في علوم القرآن لسناح القطان ص ١٠٦.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٢٦٥.

وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ ﴿المائدة: ٤٤﴾.

وقد وقع منهم هذا التحريف حقًا.

وإذا تأملنا نصوص القرآن الكريم وجدناها قد أشارت إلى ثلاث مستويات من هذا التحريف:

١. إظهار بعضه وكتمان بعضه.

وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَائِفَةٌ تُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فنصت الآية على أنهم كانوا يفرقون الكتاب في صحف أو قراطيس، وقوله: ﴿تُبَدُّونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ صفة لقراطيس، أي: تبدون بعضها وتخفون كثيرًا منها، ففهم أن المعنى: تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. وهذه الصفة في محل الذم، فإن الله أنزل كتبه للهدى، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرقها؛ ليظهر بعضًا ويخفي بعضًا فقد خالف مراد الله منها^(١).

وجلي أن المقصود من ذلك: إظهار ما

يوافق الهوى وكتمان ما يخالفه «أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله^(٢).

٢. كتابة ما ليس منه فيه ونسبته إلى الله.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَوْلِيلِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فـ: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تليس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿قَوْلِيلِ لَهُمْ

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٦٥.

جملتها إلى تأول اللفظ على غير معناه: «أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: إلا أمانى: يريد إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً. وهذا قول مجاهد واختيار الفراء. وذكر الفراء أن بعض العرب قال لابن دأب وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افعلته.

والثاني: أن الأمانى: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم. قال الشاعر^(٢):

تمنى كتاب الله أول ليلة

تمنى داود الزبور على رسل
وهذا قول الكسائي والزجاج.
والثالث: أنها أمانهم على الله، قاله قتادة^(٣).

٤. كتمانها والتواصي بذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِن بَعْضٌ قَالُوا أَتَّخَذْتُم مِّمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾
أَوَّلًا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٧﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

ومعنى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ «يعني: منافقيهم. قالوا آمنا بأنكم

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٩٤/١٥، ولم يعزه لأحد.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٨١/١.

مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿٦٧﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد^(١).

وقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾: «تأكيد وهذا الموضوع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبه بيمينك. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فالمراد: أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة؛ لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن من المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه، فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال، ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها، ويضم إليها أنه مهد طريقاً في الإضلال باقياً على وجه الدهر؟! فلذلك عظم تعالى ما فعلوه. (وقد) حكى عنهم أمرين. أحدهما: كتبه الكتاب، والآخر: إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب.

٣. تأوله على غير معناه.

وشاهده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَاقِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وفي معنى الأمانى ثلاثة أقوال ترجع في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

ثالثاً: أسباب حفظ القرآن الكريم:

على خلاف الكتب السابقة، نزل القرآن الكريم على أمة أمية تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة، ثم إن نزوله مفرقاً؛ ليقراه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس على مكث قد جعله محفوظاً عند عامتهم لا تستأثر به طائفة: ﴿وَرَوَّانَا فَرَّقْتَهُ لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَرَوَّانَهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أي: «قطعناه آية آية وسورة سورة في عشرين سنة ﴿لِنَقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ﴾ تؤدة وترسل؛ ليفهموه ﴿وَرَوَّانَهُ نَزِيلًا﴾ نجومًا بعد نجوم وشيئًا بعد شيء»^(٢).

وبناء على ذلك فقد علم بالحجة العقلية القاطعة الحاصلة من التواتر الذي لا يختلف فيه العقلاء «أن القرآن، الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف، هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثاً وعشرين سنة.

والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر، الذي يقع عنده العلم الضروري به. وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشبهه على أحد، ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه

على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِيَّاكَ بَعْضٌ قَالُوا﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتين على من نافق ﴿أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا أعقابهم، إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين»^(١).

وفي إنكار بعضهم على بعض هذا التحديث دليل على هذه الصورة من التواصي بالكتمان.

وقد تضافرت هذه الصور الأربعة على تحريف الكتاب وجعله في قراطيس يدون بعضها ويكتمون بعضاً، وكتابتهم ما ليس من الوحي فيها، وتأولهم لصحيحها على غير مراد الله منه، أو كتمانهم للحق كتماناً كاملاً والتواصي بذلك لا مجرد إظهار بعضه تضليلاً وكتمان بعض. ولقد سهل عليهم ذلك بسبب استئثارهم بها، أو استئثار فئة خاصة منهم بها من دون سائر الناس. فلما أنزل الله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته جعله محفوظاً في صدور سببانهم قبل كتب علمائهم.

(٢) الوجيز، الواحد ص ٦٥٠.

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٩.

وجودًا، فإننا نقول: إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك، فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران:

أحدهما: التحدي إليه.

والآخر: أنهم لم يأتوا له بمثل.

والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين^(٢).

ويضيف الباقلاني أن العدد العظيم من الناس الذين أخذوا القرآن وتعلموه لدواعٍ مختلفة ولو كانوا غير مسلمين، قد دل اتفاقهم على هذا القرآن أنه هو نفسه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، ولا يمكن أن يتشكك في ذلك عاقل، كيف والعقلاء لا يجيزون ذلك في مثل شعر امرئ القيس الذي لو زيد فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه!؟

قال: «وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان ذلك قولًا باطلاً، يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا! وهو يبلغ حمل جمل! وأنه كتم، وسيظهره

على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاحبة لهم، كملك الروم والعجم والقطب والحبس، وغيرهم من ملوك الأطراف.

ولما ورد ذلك مضادًا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملة، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملة وتفصيله، وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعلماً عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم. ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى^(١).

ويؤيد ذلك أنه تحداهم به ولم يزل عجزهم عن معارضته قائمًا مع علمهم به وإطلاعهم عليه، فلو جاز أن يكون القرآن الموجود بين أيدينا غير الذي تحدوا به؛ لنقل عنهم ذلك.

قال الباقلاني: «وإذا ثبت هذا الأصل

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨.

ضبطه، فمنهم: من يضبطه؛ لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أداؤها، ومنهم: من يحفظه؛ للشرائع والفقه، ومنهم: من يضبطه؛ ليعرف تفسيره ومعانيه، ومنهم: من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة، ومن الملحدين: من يحصله؛ لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة -على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم- أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟! وبين ذلك: أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَفُتْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وقول بعضهم: إن ذلك سحر، وقول بعضهم: ﴿مَا تَمَعْنَا بِهَذَا فِي آيَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آئِنَاتُ﴾ إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه^(١).

فالحجة العقلية الحاصلة من التواتر تشهد بأن نصوص القرآن الكريم محفوظة من التبديل أو التزييف أو التحريف، ولقد هيئت له عناية إلهية خاصة منذ أذف نزوله واقترب، فإذا الجن تلحظ تغيراً لم تألفه في السماء حين صارت تجد شهباً قد ملئت بها جوانبها تترصد لها كلما اقتربت على خلاف عهدا السابق: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا

المهدي! أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان، رضي الله عنهما، حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصاناً.

وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعدته الحق، وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه؛ لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظاً، من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا؛ لظهر، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن لو زيد فيه بيت، أو نقص منه بيت، لا، بل لو غير فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على

(١) المصدر السابق.

لِسَانَكَ لِيَتَجَلَّ بِهِ ۝ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿[القيامة: ١٦-١٩].﴾

وأعلن سبحانه في العالمين أنه هو من يتولى حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأن الباطل لا يقربه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٥١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وأن أحداً لن يستطيع له تبديلاً: ﴿وَأَنْتَ لَمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

ولقد نزل منجماً فحفظ ونقل تواتراً كما سلف، وهو الكتاب الأوحد الذي ما يزال دليل صدقه - إعجازه - قائماً فيه.

مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كَمَا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلشَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ مِنْهَا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿[الجن: ٨-١٠].﴾

ثم إنهم علموا أنهم قد عزلوا عن السماع لأجل أمر عظيم: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَفِيحُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

ولقد اختير لهذه المهمة العظيمة أمين كريم ذو قوة مكين ومطاع في أهل السماء: ﴿وَلِئَلَّا لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣٤﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣٥﴾ لِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢-١٩٤].﴾

وكما اختير أمين في السماء اختير أمين في الأرض، وتولى الله تنقية سيرته وتصفية أمانيه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢١].﴾

وأعلن في الناس أنه لو أراد أن يبدله أو يحرفه - وحاشاه أن يفعل - ما استطاع ذلك: ﴿وَلَوْ نَقُولْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوْتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٧].﴾

كما وعد بجمعه في صدره ثم يقرأه على الناس فلا يخطئ منه حرفاً: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ﴾

القرآن حجة الله على الناس

بين الله في كتابه أن القرآن الكريم هو حجته الدامغة على الناس، وسوف نتناول بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: القرآن منذر لمن بلغه:

لحكمة ما شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام وحيًا، وأن ينزل بلسان عربي، وأن يظل قائمًا ومحفوظًا، وأن يكون حجة على الناس جميعًا، وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بسببه أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، كما في الحديث: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة) (١).

قال ابن حجر -وهو يستعرض الأقوال في معنى الحديث-: «وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات

وتكميله في الذي بعده» (٢) أي: قوله صلى الله عليه وسلم: (فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة).

وهذا الذي ذكره ابن حجر يفيد بأن الله عز وجل قد أودع في هذا القرآن ما يجعله معجزة مستمرة يتساوى في إدراكها السابق واللاحق، وقد نصت آية سورة الأنعام على أن لمن بلغه القرآن الكريم حكم من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الحجة عليه بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً آخَرَ قُلْ لَآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبية محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم، إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعة نزول نعمة الله به» (٣).

ثم ذكر عن حسن بن صالح قال: «سألت نبيًا: هل بقي أحدٌ لم تبلغه الدعوة؟ قال:

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٧/٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١/٢٩٠.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/١٨٢.

وحمل قوله: سبحانه ﴿وَمَنْ يَلْغُ﴾ على أن المراد منه: من بلغه القرآن هو الأشهر والأوفق للسياق، ولذلك اقتصر عليه كثير من المفسرين ولم ينصوا على أنه قد يراد من الآية معنى غيره، «وقيل: ومن بلغ الحلم. ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد»^(٤). قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَمَنْ يَلْغُ﴾ قول آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَنْ يَلْغُ﴾ أي: ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد، إلا أن الجمهور على القول الأول»^(٥).

هذا ويستفاد من معنى الآية أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قائمة مقامه من بعده في تبليغ القرآن الكريم وبه تقوم الحجة على من بلغه، قال القرطبي: «وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغهما، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)^(٦).

كما ينبنى على ذلك أيضاً أن رسالة محمد

كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داع، وهو نذير. ثم قرأ: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْغُ أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾^(١).

وقال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكانما قد رأى محمداً صلى الله عليه وسلم وسمع منه. وفي الخبر أيضاً: من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه. وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له»^(٢).

وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿وَمَنْ يَلْغُ﴾: فأما قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَا نُذِرْكُمْ بِهِ﴾ فالمراد: أنه تعالى أوحى إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، وهو خطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَمَنْ يَلْغُ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن، من العرب والعجم، وقيل من الثقلين، وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكانما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحى إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن، إلا أن هذا العائد محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، كما يقال الذي رأيت زيد، والذي ضربت عمرو»^(٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٣٩٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٤٩٩.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٣٩٩.

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٣٩٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٤٩٩.

وعليه، فإن هذا القرآن حجة الله القائمة على خلقه إلى يوم القيامة، هو معجزة النبي -عليه الصلاة والسلام- شاء الله أن يظل قائماً ومحفوظاً، ومن بلغه فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم، وأمه أمينة على تبليغه من بعده قائمة مقام نبيها، ولأجل ذلك فالمسلمون أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة.

ثانياً: سماع القرآن وأثره في قيام الحجة:

نصت سورة التوبة على أن سماع القرآن الكريم كاف في إقامة الحجة على المشركين ورفع العذر عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قال ابن جرير في بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحد؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه، يقول: إلى حيث

صلى الله عليه وسلم ممتدة زماناً ومكاناً خلافاً لرسالات الرسل قبله، فهي تعم من بلغه القرآن الكريم في سائر البلاد ولو لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في وقت كونه صلى الله عليه وسلم حياً كالنجاشي الذي آمن به ولم يره وتوفي مؤمناً وصلى عليه عليه الصلاة والسلام صلاة الغائب، كما تعم «كل من يبلغه القرآن في جميع العصور»^(١).

ومن ذلك ما ذكر ابن جرير في تفسيره: «قال ابن زيد، في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: النبي النذير. وقرأ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقرأ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال: رسل. قال: المنذرون: الرسل. قال: وكان نذيراً واحداً بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدين، وكان نذيراً، ولم أسمع أحداً يحق أنه كان نبياً. ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكَ بِهِ وَمَنْ بَلَغْ﴾ قال: من بلغه القرآن من الخلق، فرسل الله نذيره. وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: لم يرسل الله رسولاً إلى الناس عامة إلا نوحاً، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم ختم به»^(٢).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٦٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٦.

الثاني الأول، وهو حصول علم سابق يؤدي إلى البكاء والسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، وقال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾. ففيض دموعهم، لمعرفةهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حق^(٣).

وقد تضمنت آية سورة الإسراء أثرًا آخر وهو السجود، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

ومعنى الآية: «ف: ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عما لا يليق -بجلاله-، مما نسبه إليه المشركون.

﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾

تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب^(١).

ويهمنا في هذا المقام ما وصفتهم به الآية من أن أعينهم تفيض من الدمع الذي هو دليل معرفة وإذعان، «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»^(٢).

وتكرر هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فقد جعلت الآية من صفة هؤلاء الذين أوتوا العلم أنهم يخرون ساجدين وباكين حين تتلى عليهم آيات القرآن الكريم، وقد اشتملت الآية على وصفين ذكرا في الآية السابقة يتفرع أحدهما عن الآخر ويتبع

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/٥٠٧.

(٣) المصدر السابق.

القرآن ﴿حُشُوعًا﴾^(١).

ساجدين، وهذا يدل على أن استشعار روعة هذه الآيات يحرك في نفس سامعها رغبة خفية في أن يخسر ساجدًا باكيًا بين يدي بارئه وفاطره.

وعليه، فإن لسماع القرآن سرًا يجعل سامعه أو طائفة من سامعيه يستشعرون عظمة منزله ويسارعون إلى الإيمان به، وقد يحصل له تأثير حتى على قلوب المعاندين له، وإن كان كبرهم يغلب عليهم في النهاية فيصرون على الصد عنه.

أما الذين زين الله قلوبهم بالإيمان وحلاهم بكماله وأذاقهم حلاوته فإن سماع القرآن يؤثر فيهم تأثيرًا خاصًا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

«أي: الله تعالى نزل بفضله ورحمته عليك - يا محمد - ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في فصاحته وبلاغته، وفي نظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وفي صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم.

﴿مَثَابًا﴾ أي: تشنى وتكرر فيه القصص

ويدو أن سبب هذا السجود رغبة تلقائية تحصل في نفوسهم من استشعار عظمة منزل هذه الآيات. ومما يؤكد حصول هذه الرغبة التلقائية قصة سجود المشركين عند نزول آيات سورة النجم، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدةٌ (والنجم)، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيتُه أخذ كفاً من ترابٍ فسجد عليه! فرأيتُه بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف)^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)^(٣).

فالمشركون أنفسهم على كونهم مجاهرين بالعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومكذبين بالوحي، لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوه - عليه الصلاة والسلام - يتلو سورة النجم، فلما بلغ موضع السجدة منها سجد فخروا معه

- (١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ١٤٢/٦، رقم ٤٨٦٣.
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ١٤٢/٦، رقم ٤٨٦٢.

جلودهم وقلوبهم إذا ما قرؤوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة^(١).
وبناء على ما سبق، فإن لسماع القرآن تأثيراً خاصاً يتفاوت باختلاف السامعين له، وأقل ذلك دلالة العقلية الظاهرة على الحق، وارتفاع الحجّة عن سماعه -والله أعلم-.

والمواعظ، والأمثال والأحكام والوعيد، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد، وإنما يزداد المؤمنون حباً وتعلقاً بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة. وسمى سبحانه كتابه حديثاً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه. فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلاً للقديم.

ولفظ: ﴿كِتَابًا﴾: بدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾. وقوله: ﴿مُتَشَبِّهًا مَّتَانِي﴾ صفتان للكتاب ووصف بهما وهو مفرد، وكلمة: ﴿مَّتَانِي﴾ جمع، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام.

أي: الله تعالى أنزل أحسن الحديث كتاباً مشتملاً على السور والآيات والمواعظ. التي يشبه بعضها في الإعجاز، والتي تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار.

وقوله: ﴿نَقَشِعْرُ﴾ من الاقشعرار، وهو الانقباض الشديد للبدن. يقال: اقشعر جسد فلان، إذا انقبض جلده واهتز، وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله تعالى.

أي: أن هذا الكتاب العظيم عند ما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر. ثم تلين

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/٢١٥.

حديث القرآن عن مواقف الناس منه

تحدث القرآن عن مواقف الناس منه، وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتي:

أولاً: المستجيبون له:

قد تقدم أن القرآن الكريم قد وصف الذين أوتوا العلم بالسجود والبكاء عند سماع آيات القرآن الكريم، وذلك منهم إقرار به وإذعان له.

قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا لَعَلَّ نَكِّنٌ لِّغَيْرِكُمْ إِذْ قُرْءَانًا فَفَرَّقْنَاهُ لِيُقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةَ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّداً ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْآذَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

«ففيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حق»^(١)، وسجودهم إذعان منهم لمُتزله.

كما ورد هذا الوصف في حق طائفة من القسيسين والرهبان: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَآنْهَمُ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ زَجَّ عَيْنُهُمْ قَفِيزٌ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

قال مجاهد: «هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وروي عن عطاء نحو ذلك»^(٢).

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا. قال: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه، فأسلم النجاشي، فلم يزل مسلماً حتى مات. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحاكم النجاشي قد مات، فصلوا عليه! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، والنجاشي ثم»^(٣).

وقد روي أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَكَعُوا لِاللَّغْوِ

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٩.

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.

أخبر به، ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيها، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها^(٢).

وقد دلت هذه الآيات على أن المتصفين بالعلم، الذين لم يعم الكبر والعناد قلوبهم، إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم شهدوا

الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن، فرح به المسلمون وصدقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب؛ لأنه صدق ما عندهم^(١).

وقد نص القرآن الكريم على أن الذين أوتوا العلم يرون نصوصه حقاً وتنزيلاً من الله وهادية إلى صراطه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيها ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٥.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٨.

بصدقها وأقبلوا عليها خاشعين مذعنين مطيعين مستجيبين.

ثانيًا: الصَّادُونَ عنه:

قص القرآن الكريم عن المشركين أنهم في خضم معاندتهم للحق وصددهم عنه قالوا إن قلوبهم مغلقة فلا يصل الحق إليها، وفي آذانهم صمم فلا يسمعون ما يتلو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم وبينه حجاب فلا يرونه.

قال تعالى: ﴿حَمَّ ① تَنْزِيلٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كَذَّبُ ③ فَصَلَّتْ ④ عَائِنَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ ⑥ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ⑦ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي وَعَادَانَا وَقُرْءٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ⑧﴾ [فصلت: ١-٥].

﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينون عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطية مغطاة ﴿مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي وَعَادَانَا وَقُرْءٌ﴾ أي: صم فلا نسمع لك ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك.

القص من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك،

فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا^(١).

وكما أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يسمعون تبيينًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد تواصلوا بعدم السماع للقرآن الكريم وأمر بعضهم بعضًا بذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهي: عطف على جملة ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على جملة ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ﴾^(٢).

وعلى هذا فإنهم مع زعمهم أن القرآن الكريم لن يؤثر فيهم؛ لأنهم لا يسمعونه وقلوبهم مغلقة عن أن يصل إليها، فإنهم لم يستطيعوا الصبر عليه بحيث تواصلوا باللغو

(١) المصدر السابق ص ٧٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/٢٧٧.

فيما حكي عنهم ﴿هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ
الْمُهْتَكَمُ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وتسميتهم إياه بالقرآن؛ حكاية لما يجري
على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك.
وتعدية فعل ﴿تَسْمَعُوا﴾ باللام؛ لتضمينه
معنى: تطمثنوا أو تركنوا.

واللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويسمى
الكلام الذي لا جدوى له لغوًا، فمعنى
﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾: قولوا أقوالًا لا معنى لها أو
تكلّموا كلامًا غير مراد منه إفادة^(١).

في غمرة هذا العناد لم يشعر هؤلاء
المعاندون أنه قد طبع على قلوبهم حقًا
وجعلت عليها أكنة وأغلفة مانعة من وصول
الحق إليها فلا يفقهون معانيها، وأن آذانهم
قد صمت عن سماع الحق، سماع من
يستجيب له.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٥٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَوَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

(١) المصدر السابق.

فيه وتناهوا عن سماعه، وما ذلك منهم إلا
مخافة لتأثيره في بعضهم: «فإنهم علموا أن
القرآن كلام هو أكمل الكلام، شريف معاني
وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أن
كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه
وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه،
وقد أدركوا ذلك بأنفسهم، ولكنهم غالبتهم
محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا
ودبروا تدييرًا لمنع الناس من استماعه،
وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع
القرآن فصرفوهم عن سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن
يكتموا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما
يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب
وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة
ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أن حجة
خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها
لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان
والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق
الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين
فيهم بقية من خير ورشد، عدلوا إلى لغو
الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة
لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق،
ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو،
وكذلك شأن هؤلاء. فقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا
هَذَا الْقُرْآنَ﴾ تحذيرًا واستهزاء بالقرآن،
فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما

[الإسراء: ٤٥-٤٦].

«وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع (كنان)، الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لثلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفهم ويهتدون به ^(١).

وهؤلاء يصل القرآن إلى آذانهم ولكنهم لا يسمعون: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ويصير القرآن الذي هو نور عمى عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجِبُكُمْ وَعَرِفُكُمْ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأجل ذلك فهم لا يتفنون بما فيه من تذكير ومواعظ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولا تنشرح صدورهم لآياته: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

ويغضبون إذا تليت عليهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُّونَ بَشِيرٍ مِمَّنْ ذُكِّرُوا النَّارَ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

وهؤلاء الصادون قد جحدوا بآيات الله، وقد استيقنتها قلوبهم بما خالطها من مرض وكبر وعناد، فهم يجادلون بكل باطل؛ ليدحضوا به الحق، فإذا تقطعت بهم السبل وأعتبهم الحجة انقلب كبرهم غضبًا وبطشًا، بل إن مجرد سماع آيات الله تلى يستفز هذا الغضب في نفوسهم، فإذا هم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨٢/٥.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ الواقعة: ٧٥-٨٠.﴾

فهو محتمل لكونه خبراً أو أمراً، قال ابن العربي: «ف قيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، وقيل: هو نفي. وكان ابن مسعود يقرأها: (ما يمسه إلا المطهرون)؛ لتحقيق النفي»^(٢).

وتفريعاً على ما سبق، فقد اختلف في المراد بالمس: أهو المس بالجراحة أم لا؟ وفي المراد بالمطهرين: هل هم المطهرون من الحدث أم من شيء آخر؟ قال القرطبي: «اختلف في معنى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ هل هو حقيقة في المس بالجراحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبيرة: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجيريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون.

الكليبي: هم السفارة الكرام البررة، وقيل: معنى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ لا ينزل به ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون. وقيل: إن إسرافيل

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٤.

الأدب مع القرآن

بين القرآن بياناً شافياً أدب الناس مع القرآن.

أولاً: أدبهم مع صحفه:

وصف الحق سبحانه وتعالى كتابه بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة: ﴿كَلَّا إِنَّمَا نَذِيرٌ ﴿١١﴾ فَتَن شَاءَ ذِكْرُهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

قال ابن عطية: «وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء المنزلة، وقيل: مصاحف المسلمين، واختلف الناس في (السفرة)، فقال ابن عباس: هم الملائكة؛ لأنهم كتبه يقال: سَفَرْتُ أَي: كتبت، ومنه السَّفْرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الملائكة سفرة؛ لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء، وواحد السفرة سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعلم، والقول الأول أرجح»^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النَّجْمِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٨.

هو الموكل بذلك، حكاه القشيري^(١).

ويرى ابن العربي أن الملائكة لا تصل إلى اللوح المحفوظ، قال: «أما قول من قال: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فهو باطل؛ لأن الملائكة لا تناله في وقت، ولا تصل إليه بحال؛ فلو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه محل.

وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة من الصحف فإنه قول محتمل؛ وهو الذي اختاره مالك قال: أحسن ما سمعت في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى): ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ يريد: أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة (عبس)^(٢).

وقيل: إن المراد المصحف الذي بأيدينا، قال الجصاص: «روي عن سلمان أنه قال: لا يمس القرآن إلا المطهرون فقرأ القرآن ولم يمس المصحف حين لم يكن على وضوء، وعن أنس بن مالك في حديث إسلام عمر قال: فقال لأخته: أعطوني الكتاب الذي كنتم تقرؤون، فقالت: إنك رجس وإنه لا يمسه إلا المطهرون! فقم فاغتسل أو توضأ، فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأه - وذكر

الحديث-، وعن سعد أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف، وعن ابن عمر مثله، وكره الحسن والنخعي مس المصحف على غير وضوء»^(٣).

واختاره القرطبي، قال: «وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته: من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال، والحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان: أما بعد؛ وكان في كتابه: ألا يمس القرآن إلا طاهر. وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر).

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فقام واغتسل وأسلم، وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس»^(٤).

ويلاحظ من الاستظهار على تقرير النهي عن مس المصحف بالأخبار السالفة أن دلالة الآية عليه محتملة وغير صريحة، قال الجصاص: «إن حُمل اللفظ على حقيقة

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٣٠٠/٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢٦/١٧، وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١٧٥/٤.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢٦/١٧.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١٧٥/٤.

لضرورة التعلم، أو التعبد عند بعضهم، وقد يكون الحكم مُسَلِّماً لا اعتراض عليه، إنما الذي لا يسلم هو أن يكون الحكم مأخوذاً من هذه الآية، فإنك لمست ما فيها من احتمالات كثيرة، بل ويرجح بعض العلماء أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن الضمير في ﴿يَمْسُهُ﴾ راجع إليه، وأنه حتى على فرض أن الكتاب القرآن، فليس هو المصحف، بل هو المصحف الذي بأيدي الملائكة، ولئن كان هو المصحف فالمطهرون يحتمل أن يراد منهم المؤمنون، ويراد من المس الإدراك، ويكون المعنى لا تفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلوب الملوثة أن تجد نور الإيمان. قال البخاري في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به» (٢).

ثم يقول: «إذا كان المفسرون تبعاً للفقهاء يستدلون بالآية من وجهها الذي استدل بها منه ابن تيمية على الحكم كان حسناً، حيث قال: إن الآية تدل على الحكم من باب الإشارة والتنبيه؛ لأنه ما دامت صحف القرآن في السماء لا يمسه إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسه إلا الطاهر» (٣).

وبناء على ما سبق، يمكن أن نقول: إن

الخبر فالأولى أن يكون المراد القرآن الذي عند الله والمطهرون الملائكة، وإن حُمل على النهي وإن كان في صورة الخبر كان عموماً فينا، وهذا أولى؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخبار متظاهرة أنه كتب في كتابه لعمر بن حزم: ولا يمسه القرآن إلا طاهر، فوجب أن يكون نهي ذلك بالآية؛ إذ فيها احتمال له، واقتصر الكيا هراسي على النص على أنها تدل على وجوب الوضوء لمس المصحف من غير تفصيل للمسألة فقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٣﴾ فِي كِتَابٍ مَكْتُوبٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يدل على منع مس المصحف من غير وضوء» (١).

ويرى السائيس أن منع المحدث من مس المصحف مستفاد من السنة، وذلك يغني عن تكلف إيجاد الدلالة عليه في الآية، قال: «من المفسرين من يريد إرجاع الضمير في: ﴿لَا يَمْسُهُ﴾ إلى القرآن الكريم، وأن من الآراء في ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ رأياً يقول: هم المطهرون من الناس، وأن طهارتهم هي الطهارة الشرعية من الحدثين. على هذين الاعتبارين يقوم استدلال بعض الفقهاء بالآية على عدم مس المحدثين للمصحف، وعدم مس المحدث للمصحف أمر يكاد يجمع عليه، ومن أجازاه من الفقهاء أجازاه

(٢) تفسير آيات الأحكام، السائيس ص ٧٢١.

(٣) المصدر السابق.

(١) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/٣٩٩.

وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما: المنع اعتبارًا بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثًا^(١).

ثانيًا: أدبهم عند سماعه:

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يستمعوا وينصتوا إذا قرئ القرآن فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها، كل ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ»^(٢).

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

الطهارة عند لمس المصحف أدب يتأدب به المؤمن مشابهة للملائكة المطهرين، وهو يلقي في نفسه شعورًا بعظمة هذا الكتاب وجلال منزله والحفاوة التي صاحبت نزوله وتلاوته في الملاء الأعلى، فضلًا عن كونه واجبًا شرعيًا عند أكثر الفقهاء، قال القرطبي: «الجمهور على المنع من مسه (لغير المتوضئ)؛ لحديث عمرو بن حزم.

وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل.

وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهرًا أو محدثًا، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه.

(١) تفسير آيات الأحكام، السائيس ص ٧٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(١).

لكن حمل الآية على ظاهرها بهذه الصورة المطلقة لم يجر على السنة المفسرين، وأغلبهم لا يناقش حتى هذا المفهوم المتبادر؛ فعقد ابن العربي مثلاً للحديث عنها ثلاث مسائل تناول في أولها: سبب نزولها - وكانه رآه مخصصاً ومبيناً لما يفهم من عمومها -، ثم تحدث في الثانية والثالثة عن حكم القراءة خلف الإمام^(٢).

وأما أبو بكر الجصاص فقد اقتصر في الحديث في أحكامه تحت الآية على مسألة القراءة خلف الإمام فقط^(٣)، وكذلك فعل الكيا هراسي الشافعي^(٤).

وقال الماوردي: «قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٥).

وأما القرطبي فرغم تمسكه بالعموم في الرد على كل من زعم قصر الآية على موضع مخصوص فقال: «قال بعضهم في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾: كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصاً ليعيه عنه أصحابه. قلت: هذا فيه بعد، والصحيح: القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَقَلَّمَكُمْ تَرْجُمُونَ﴾^(٦) والتخصيص يحتاج إلى دليل^(٦).

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

وقال أيضاً: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضاً أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبه هذه الآية وغيرها

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(١).

لكن حمل الآية على ظاهرها بهذه الصورة المطلقة لم يجر على السنة المفسرين، وأغلبهم لا يناقش حتى هذا المفهوم المتبادر؛ فعقد ابن العربي مثلاً للحديث عنها ثلاث مسائل تناول في أولها: سبب نزولها - وكانه رآه مخصصاً ومبيناً لما يفهم من عمومها -، ثم تحدث في الثانية والثالثة عن حكم القراءة خلف الإمام^(٢).

وأما أبو بكر الجصاص فقد اقتصر في الحديث في أحكامه تحت الآية على مسألة القراءة خلف الإمام فقط^(٣)، وكذلك فعل الكيا هراسي الشافعي^(٤).

وقال الماوردي: «قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٥) أي: لقراءته. ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ أي: لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿لَقَلَّمَكُمْ تَرْجُمُونَ﴾.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

(٢) انظر أحكام القرآن، ابن العربي ٢/٣٦٤.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/٢١٥.

(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٣/١٤٢.

(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/٢٩٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/٣٥٤.

يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلُبُونَ﴾ ، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى.

وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجردة في صور كثيرة مؤول، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدًا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها:

فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها، فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام. وهؤلاء قصرُوا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه، عند من يخصص به، وهذا تأويل ضعيف؛ لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح، ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل، وليس فيه شيء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية، ولو قالوا: المراد من قوله:

من السنة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»^(١).

بل وذكر أنه يفيد (في اللغة) ما هو أعم من ذلك، فنقل عن النحاس: أنه «في اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء»^(٢)، إلا أنه لم يصرح -بل ولم يناقش ولم يطرح مطلقاً- مسألة وجوب الإنصات خارج الصلاة.

وقد ذكر الخازن في تفسيره أن الحسن والظاهرية أجروا الأمر على ظاهره، فقال: «وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم، ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام»^(٣).

قال ابن عاشور: «هذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات، وفي مقتضى الأمر من قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ ،

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٥٣.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٥٤.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.

المقضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين»^(٣).

فإذا استبعدنا التفكير الفقهي الذي يربط المسألة بالإيجاب أو النذب، فإن محل الاتفاق أن الإنصات إلى آيات الذكر إذا تليت ليس أقل من أن يكون أدباً عظيماً يتأدب به العبد الراجي؛ لأن يكون من المشمولين برحمة منزله الرحمن الرحيم.

ثالثاً: أدبهم مع دلالاته ومعانيه:

في سياق مدحه لأوليائه، وصف الرحمن عباده المنسويين تشریفاً إلى جلاله بأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا لَمْ يَسْمَعُوا لَهَا وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الفرقان: ٧٣].

عن قتادة قال: «لم يصموا عن الحق ولم يعموا عنه، هم قوم عقلوا عن الله فانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله. وقال مجاهد: كم من قارئ يقرأها بلسانه يخبر عليها أصم

﴿قُرِئَتْ﴾ قراءة خاصة، وهي أن يقرأه الرسول -عليه الصلاة والسلام- على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم، لكان أحسن تأويلاً^(١). لكن هذا الذي يستحسنه قد اعترض عليه القرطبي -أيضاً- بعموم اللفظ كما تقدم.

وبعيداً عن الحكم الفقهي فإن الآية قد جاءت بأمر معلل تضمن أدباً أدب به المؤمنون:

فأما الأدب فهو الاستماع للقرآن الكريم إذا تلي والإنصات له: ﴿وَإِذَا قُرِئَتْ عَلَيْكُمْ آيَةُ الْكِتَابِ فَاسْتَمِعُوا لَهَا﴾ يعني: أصغوا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه، ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ يعني: عند قراءته، والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نَصَتَ وَأَنْصَتَ وَأَنْصَتَ بِمعنى واحد^(٢).

وأما العلة: فهي رجاء المستمع المنصت أن تشمله رحمة منزله سبحانه وتعالى، وذلك حاصل من تدبر ما تضمنته آياته من معانٍ ودلائل ووصايا وأوامر ونواهي «فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٠/٩.

(٢) لباب التأويل، الخازن ٢٨٦/٢.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣٩/٩.

أعمى»^(١).

والمعنى: أنهم استمعوا إلى ما فيها من المواعظ وانتفعوا بها، قال أبو السعود: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمًّا﴾ أي: أكبوا عليها سامعين بأذانٍ واعية مجلين لها بعيون راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون»^(٢).

ومقصد الآية أن تثبت لهم الاتعاض والانتفاع بعد حسن الإنصات والاستماع، فلما نفت ضده عنهم أضافت إلى ذلك معنى زائدًا، صورته الموازنة بين حالهم وحال المخدولين على جهة الترغيب في هذا، ونصبه في مقام القدوة، والترهيب من ذاك وبيان قبحه وتصويره في صورة النقيصة، «وإذا كان الكلام مقيدًا بقيد كما هنا، فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي. ونظيره: ما رأيت زيدًا راكبًا، نفيًا للركوب لا للرؤية. ولا يلقاني مسلمًا نفيًا للسلام لا للقاء. فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور»^(٣). على أنه قد تقدم «وصفهم [هم أنفسهم]. فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، وبعدهم عنه.

ثم وصفهم هنا بإقبالهم على الحق، وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين»^(٤).

فأما (الخرور): ف«هو السقوط كسقوط الساجد»^(٥)، و«هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه. فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا، أو بالبدن سجودًا أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود؟»^(٦)

كل محتمل. وبناء على اختيار أحد المعنيين يكون حمل الخرور على وقوع السجود منهم حقيقة، أو وقوع الهيبة والشعور بعظمة منزل هذه الآيات في القلب، ولا ريب أن الأمرين واقعان، يقع منهم هذا مرة، ويقع هذا منهم أخرى، وقد يجتمعان معًا.

و«(الأصم): فاقد حاسة السمع، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به، وهو المراد هنا.

و«(الأعمى): فاقد حاسة البصر، أو الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي، وهو عمى البصيرة، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين.

وعبر بـ (إذا)؛ لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يسمع من القرآن في الصلاة

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤١٣.

(١) الدر المشور ٦/ ٢٨٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.

(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.

شامل لتارك التدبر والنظر في آيات الله. أي: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ منادياً لربه وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم، ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسلماً لرسوله ومخبراً أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل^(٣).

وقد ذكر ابن كثير لهذا الهجر صوراً ومراتب فقال: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين- أنه قال: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْفَوَاحِشُ لَغَوِّونَ﴾، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره، حتى لا يسمعه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وترك

ومن الخطب في الجمع. وبنى الفعل للنائب؛ لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان^(١).

وعلى هذا فهؤلاء الموصوفون -على جهة المدح والتشريف- بأنهم عباد الرحمن من صفاتهم التي استحقوا بها المنزلة والشأن «أنهم إذا ذكروهم مذكر بآية ربهم التي أنزلها على نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم- بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيئه- أقبلوا عليها، وأكبوا على سماعها، بأذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة. لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون؛ لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون»^(٢).

وعليه يكون الاتعاظ والانتفاع، والمبادرة والاستجابة والإسراع، من بعد حسن الإنصات والاستماع من أوجب الآداب التي يتأدب بها الطامع في رحمة ربه الراجي لها.

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين أن قوله جل وعلا في السورة نفسها: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٤.

(٣) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٢.

الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه، فسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب»^(١).

وبناء على ما قال فلا يخرج العبد عن أن يعد في أهل هذه الشكوى حتى يكون تاليًا متفهمًا متدبرًا لآيات الكتاب مستأنسًا بها مؤثرًا لها على غيرها.

قال ابن باديس تحت عنوان (تحذير وتنبيه): «قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه؛ تقييحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهدب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد

الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر»^(٢).
وحيث أن «الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين، ومقبلين. فالمعرضون غير المؤمنين. والمقبلون على قسمين: مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم. فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون. والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين. وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مبينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبر من المؤمنين»^(٣).

قال ابن باديس تحت عنوان (تحذير وتنبيه): «قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه؛ تقييحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهدب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/١٠٨.

من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به، جاحدون له^(١).

فقد كادت آيات القرآن تخلع الجبال، وكذا فإنه لو أنزل عليها لتصدعت وخشعت مع أن قلوب البشر لا تفعل، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فتضمنت الآية تعظيماً لأمره، وتبييناً لعلو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، فمن تفكر علم أن في قلوب بعض الناس قسوة

أثر القرآن على المكلفين واجمادات

قد ورد أنه لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها، ويقطع الأرض، أو أن يكلم الموتى في قبورهم به لكان هذا القرآن، وأن لآياته عظمة حقيقة بأن تخشع لها الجبال وتتصدع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَت بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَت بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّئِنَّ الْأَمْرَ لَجَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

فلعظمة القرآن وإعجازه كاد يحدث هذا الأثر العجيب في ما هو شديد من المخلوقات كالجبال، ومع ذلك فقد كفر به خلق وصدوا عنه.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سِيرَت بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٤٦٠.

(٢) المصدر السابق ٨/٧٨.

تفوق قسوة الجبال.

وبناء على ما سبق، فإنه يفترض حصول الخشوع في قلوب الناس عند سماع القرآن الكريم، كما نصت على ذلك الآية التي اشتملت على أمر غير مباشر بتحقيق هذا الخشوع، فمن ابن عباس قال: يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله - عز وجل - الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

ونص على ذلك القرطبي أيضًا فقال: «قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا﴾ حث على تأمل مواضع القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرايتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشقة من خشية الله. والخاشع: الدليل. والمتصدع: المتشقق» (٢).

وهذا الخشوع أولى بأن يكون أثرًا في قلب المؤمن، وقد وصف القرآن الكريم حالة تحصل في نفس المؤمن تصاحب الخشوع سماها: (شرح الصدر) في قوله عز

وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ قَوْلٌ لِّلْقَيْسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣) ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابَفٍ نّٰقُشِعْرُ مِنْهُ جُلُودٌ الّٰذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ اِلَىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدٰى اللّٰهُ يَهْدِىٕ بِهٖ مِّنۡ يَّشَآءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

ودل سياق الآيات على أن حالة الانسراح هذه مصاحبة للخشوع: فقد قابلتها الآية بصورة القلب القاسي، قال ابن كثير: «وقوله:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مِيثًا فَآحِيثِنَةً وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قَوْلٌ لِّلْقَيْسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللّٰهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣)، ثم أعقبت ذلك ببيان أثر القرآن على الجلود والقلوب.

ومعنى الآية: «أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيتها، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/٣٠١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/٩٣.

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢﴾. «واللين: ضد الخشونة، وقوله: ﴿ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأييدهم منه» (٢).

وقد يكون هذا اللين هو المنصوص عليه في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]: أي: «تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله» (٣).

«و(طمأنينة القلوب) هي الاستكانة، والسرور بذكر الله، والسكون به كما لا به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين» (٤).

ودل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ على أن الطمأنينة لا تحصل إلا بذكر الله وحده. فتكون هذه الحالة النفسية من انشراح الصدر ولين القلب وطمأنينته مصاحبة لهذا الخشوع أو أثره.

وقد ذكرت آية سورة الزمر تأثيراً آخر للقرآن الكريم على ما يظهر على أبدانهم فنصت على أن جلودهم تقشعر عند سماعه،

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابَيًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ

(٢) المفردات، الراغب ص ٧٥٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٤٣٢/١٦.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٣١١.

هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه متته فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟

وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبير عنه بقوله:

﴿قَوْلٌ لِلنَّفْسِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكراً به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه.

وقيل: ﴿مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت (من) مكان (عن)، كما يقال في الكلام: أتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد، هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر» (١).

ومقابلة صورتني (منشراح الصدر مقشعر الجلد) و (قاسي القلب) تدل على أن هذا الانشراح مرتبط بالخشوع.

وكما نصت الآية على انشراح الصدر نصت أيضاً على لين القلب: ﴿ثُمَّ تَلَيْنَ

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٢٧٧.

موضوعات ذات صلة:

الإنجيل، التوراة، الكتب المنزلة، محمد صلى الله عليه وسلم

يَسْأَلُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾
[الزمر: ٢٣].

ف «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف»^(١).

وهذه الحالة ترد عليهم أولاً، ثم تعقبها حالة أخرى هي لين الجلود والقلوب: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِيَّكَ ذَكَرِ اللَّهُ﴾؛ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه.

قال السدي: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِيَّكَ ذَكَرِ اللَّهُ﴾ أي: إلى وعد الله^(٢).

وفي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِيَّكَ ذَكَرِ اللَّهُ﴾ «دليل على أن هذه القشعريرة ناتجة عن شيء في القلب وهو الخشوع والخشية؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الوجل في القلب كإحراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك»^(٣).

أي: إنها حالة متفرعة من الخشوع والخوف والوجل، وسائر ذلك مما يرد على قلب المؤمن عند سماعه آيات التنزيل تتلى.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٩٣/٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣)